والعمل الأدبي – كتكوين عقلي – يخرج في صورة مادية مكوَّنة من ألفاظ متسقة تؤدي معنى عاما ، أو غرضًا خاصا ، وتتمثل هذه الصورة في الذهن ، ثم يُرْمَز لها باللفظ اللائق بها . وبما أن النشاط العقليَّ شيءٌ خفيٌّ يصعب رصدُه ودراسته ، فقد أهمله معظمُ النقاد القدامى ، و وجهوا جهدهم إلى المظهر المادي لهذا النشاط ، ورأوه يمر بمرحلتين – الأولى : مجرد التعبير بألفاظ تأتي وما يتفق في صورة عفوية ، والثانية : تهذيب هذه الألفاظ وتنقيحها حتى يبرزَ المعنى في أحسن صورة ، فيأتي المعنى مع أخيه لا مع الأجنبي عنه ، و « مثاله أن تذكر وصفًا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع ما يبعد عنه كان ذلك قدحًا في الصناعة ، وإن كان جائزًا . فمن ذلك قول الكُمَيْت :

أَمْ هَلْ ظَعائِنُ بِالعلياءِ رافِعَة وَإنْ تكامَلَ فيها الدَّلُّ وَالشَّنَبُ

فإنَّ الدَّلَّ يذكر مع الغنج وما أشبهه ، والشَّنَب يذكر مع اللَّعس وما أشبهه، وهذا موضع يغلط فيه أربابُ النظم والنثر كثيراً ، وهو مظنة الغلط ؛ لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق ، بحيث توضع المعاني مع أخواتها لا مع الأجنبي منها .» [1]

فهناك معنى أولي لم يحسن الكميت التعبيرَ عنه باختيار ما يناسبه من الألفاظ ، ولكنه أفهم بطريقة ما دون أن يحقق مستوى الجودة المطلوب في الأداء الشعريِّ .

ومن المؤكد أن كثيراً من نقّادنا القدامى قد أقاموا علاقة ما بين الدال من حيث كونه صوتًا والمدلول باعتباره رمزًا له وإشارة إليه . وحذق المبدع

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .